إسلامه

كان إسلامُ خالدٍ ضرباً من التسليم

كان ضرباً من التسليم بمعناه «العسكرى» المصطَلحِ عليه فى عُرف القادةِ ورجال الكفاح .

لأنه أسلم أو سلَّم تسليمَ القائد البصير بحركة القتال بين المد والجزر ، والنصر والهزيمة ، والخبير بموضع الإقدام وموضع الإحجام ، المقاتِل والقتالُ شجاعة ، المسالِم والسلمُ ضرورة لا محيص عنها[1]

ولم يكن تسليمُه تسليم العاجز الوَكِل[2] ولا الجازع المنخَذِل . بل لعله بلغ من نفسه غاية الثقة بالقُدرة، وحُمَادى[3] اليقين بالخِبْر . يوم أسلم وسلَّم إلى معسكر الدين الجديد . كأنه آمن بالله لأنه علم من ذات نفسِه أنه لن يغلبَه إلا الله ، وكأنه كان يقول فى قرارة ضميره : أيهزمنى أحدٌ وليس له مَدَدٌ من النبوَّة ؟ أيعلو سيفٌ على سيفى وليس له سِرٌّ من السماء ؟ . .

---

(١) لا محيص عنها : لا مفر منها .

(٢) الوكل : الجبان العاجز .

(٣) الحمادى : الغاية ومبلغ الجهد .

فبلغ نهايةَ الإيمان بنفسه يوم بلغ بداية الإيمان بالله .

وقد كان على ذويه فى بنى مخزوم أن يحاربوا حربَهم إلى نهايتها لأن الصراعَ بين الجاهلية والإسلام لم يكن إلا صراعاً لهم قبل كلِّ جاهلىٍّ وكل قرشى وكل عربى على التعميم .

وكان معسكرُهم أَوْلى المعسكرات أن يصمُدَ إلى موقف الحسم من النضال بين الفريقين ، لأن بلاءه بإدبار[1] الجاهلية أكبرُ من كلِّ بلاء ؛ وموقفَه أمامَ الإسلامِ موقفُ من ينافحُ عن عزته وعزة بيته وعزة آبائه وأجداده ، وعزة « النظام » الاجتماعى كلِّه كما قررته الجاهلية أحقاباً بعد أحقاب ، لأنه النظام الذى به يقومون وبهم يقوم .

وقد أبلى أبوه فى هذا الصراع قُصارى ما فى وُسْعِه من بَلاء ، وهو شرحٌ يطول ، وتفصيلٌ تضيقُ به الفصول ، ولكنَّ إشارة واحدةً فيه تغنى عن بيان طويل ، وصفحةً موجزةً من صفحاته تغنى عن الإطناب فى القيل والقال .

وحسبنا من تفصيل مكائده وجهوده كلها فى حرب الإسلام أن نقول إنه قد هان عليه فى هذا السبيل أن يبذلَ العزيزين : الولدَ والمالَ .

---

(١) بإدبار الجاهلية : يعنى (بزوالها) .

فى بداية الدعوة المحمدية سعَى وقومُه إلى عمِّ النبي أبى طالب ليُسْلِمَهم محمداً أو يتخلَّى عنه ، وله بديلاً منه عمارةُ بن الوليد[١] وقد وصفوه بأنه أنهدُ[٢] الفتيان وأشعرهم وأجملُهم فى قريش .

وبعد استفاضة الدعوة المحمدية يسعى إلى النبي فيمن سعى إليه من سَرَاةِ[٣] قريش ليشاطروه أموالَهم ويسكتَ عن أربابِهم وعباداتهم ، وفى ذلك يقول القرآن الكريم فى سورةِ الأحزاب .

«ولا تُطِعِ الكافرينَ والمنافقين » . .

وبمقياس هذا البَذْل السَّخِيِّ فى سبيل الدين تُقاسُ كراهةُ الرجل للدين الجديد ، وهى كراهة الهرِم التى تبقى إلى الموت ؛ لأنه فوجئ بالإسلام وهو يقاربُ الثمانين ، وظلَّ على الكَيْدِ له حتى مات بُعيْد الهجرة وقد نَيَّفَ على الخامسةِ والتسعين .

* **

وكان خالدٌ فتى ناشئاً يوم ظهر النبيُّ بالدعوةِ الجديدة ، فنَفَر منها كما نفر قومُه أجمعون ، وزاد على النَّفرة لهباً من حميَّة صِبَاه[٤] وتحفُّزاً فَتِيًّا يسبقُ به أباه .

(١) وله . . إلخ : أى : (وله عمارة بن الوليد،بديلا منه) .
(٢) أنهد الفتيان : أشدهم وأقواهم ، وأشعرهم : أكثرهم إجادة للشعر .
(٣) سراة : جمع سرى ، وهو الكريم ذو المروءة ، والمقصود (عظماؤهم) .
(٤) حمية الصبا : حماسة الشباب .

فما هو إلا أنْ بلغ مبلغَ الزعامةِ فى القتال حتى تجرَّد لها بعزيمة الفتوَّةِ وشجاعةِ البطولة ، ولم تنقضِ سنتان على موتِ أبيه حتى كان قائد الميمنةِ فى وقعة أُحُد المشهورة ، وتولى الهجمةَ التى مالت بكفَّةِ النصرِ من جانب المسلمين إلى جانب المشركين .

وذلك أن النبيَّ عليه الصلاة والسلامُ أقام الرُماة من وراءِ جيشه وقال لهم : «قوموا على مصافِّكم [1] هذه فاحموا ظهورنَا . فإن رأيتمونا قد انتصرْنا فلا تشركونا ، وإن رأيتمونا نُقْتَل فلا تنصرُونا فلما ولَّى المشركون منهزمين وتبعهم المسلمون مغتنمين ، خالفتْ كثرةُ الرُّماة وصيانةَ النبى وتصايحوا بينَهم : «ما مُقامنا ها هنا وقد انهزمَ المشركون » فكانت هى الغِرَّةَ التى اهتبلَها [2] خالد . ولم تُذْهِله عنها الهزيمةُ المُطْبِقةُ بقومه ، فكرَّ بالخيل وتبعه عكرمةُ ابنُ أبى جهل صاحبُ الميسرة وداروا من وراءِ جيش المسلمين ، فحملوا على من بقَى من الرُّماة فقتلوهم وقتلوا أميرهم عبدَ الله بن جُبَير ، وانتقضت [3] صفوفُ المسلمين واستدارت رَحَاهُم [4] .

---

(١) المصاف : جمع مصف (بفتح الميم وتشديد الفاء) وهو موقف الحرب .

(٢) الغرة التى اهتبلها : الغفلة التى انتهز فرصتها .

(٣) انتقضت : تشتتت .

(٤) الرحى : الطاحون ، ويقال « دارت عليه رحى الحرب » إذا انهزم ، وقوله (استدارت رحاهم) أى انقلبت الآية فهزموا بعد أن كانوا منتصرين .

واختلطوا فصاروا يقتتلون على غير شِعَارٍ ، ويضرب بعضُهم بعضاً من العَجَلة والدهَش ، وشاع أن عليه الصلاة والسلام قُتِل فى المعركة ، وقُتِل فيها حمزةُ وسبعون من الأنصار ، وأرجف المُرجفون[1] بكبار الصحابة حتى ظن أبو سفيانَ أن أبا بكرٍ وعمرَ من القتلى ، وصاح بين الصفوف : « يومٌ بيومِ بدرٍ والحربُ سِجَال[2] » .

واشترك خالدٌ فى وقعة أُخرى هى وقعةُ الأحزاب ، أو الخَندق . فكانت هى أيضاً من أهْولِ الغزوات على المسلمين . وأوشكت أن تَحِيقَ بهم دوائرُها لولا يقظةُ علىِّ بنِ أبى طالب ، ووقيعةُ بعضِ الدُهاةِ بين أحزاب قريش ، وهبوبُ الريح التى عصفَتْ ببيوتهم وقدورهم وزادتهم يأساً من اقتحام الخندق الذى حفره المسلمون حول المدينة ، وفى هذه الغزوة يقول القرآن الكريم : « يَأَيُّها الذين آمنُوا اذْكُرُوا نعمةَ الله عليكم إذْ جاءتْكم جنودٌ فأرسلْنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروْها وكان اللهُ بما تعملون بصيراً ، إذ جاءُوكم من فوقِكم ومن أسفلَ منكم وإذ زاغتْ الأبصَارُ وبَلَغتِ القلوبُ الحناجرَ وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتُلِىَ المؤمنون وزُلزِلوا زِلزالاً شديداً . . »

---

(١) أرجفوا بهم : اختلقوا الأقوال الكاذبة ، ومنه قوله تعالى (والمرجفون فى المدينة) .

(٢) الحرب سجال : متداولة بين المتحاربين ، يوم لأولئك ، ويوم لهؤلاء .

وقد كان خالد فى هذه الغزوة يطوفُ بخيْله حولَ الخندق يلتمسُ مَضِيقاً يقحم منه الخيل فأعياه ، وفشلَ عمرو بن وُدٍّ[١] حين حاول العبورَ من إحدى نواحيه. فلما حبِطت[٢] حملةُ عمرو وقتله علىُّ بن أبى طالب بات المشركون ليلتَهم يقسِّمون كتائبَهم لكلِّ فريق من المسلمين كتيبة تدهَمُه مع الصباح ، فكان خالدٌ هو الموكَّل[٣] بالنبى عليه الصلاة والسلام فى كتيبة غليظة من خيل قريش والأحزاب ، فاندفع يقاتلُ سحابةَ النهار وهَوِيًّا من الليل[٤] ، إلى أن تحاجز الفريقان ، ورجع المشركون ، وانصرف المسلمون إلى قُبَّة النبى ، فارتدَّ خالد بعد هنيهة يطلبُ الغِرَّة ، وكاد يظفرُ بها لولا حَرَسٌ من المسلمين بقيادة أُسَيْدِ بن حُضَيْر تنبَّه له وفوَّتَ عليه غرضَه . ثم انقطع القتال وهو لا يزال على الطلب والطَّوافِ ، وكان آخرَ من ترك الحَومةَ بعد يأْس الأَحزابِ من عبور الخندق ودخولِ المدينة، فلبث هو وعمرُو بنُ العاص على ساقة الجيش[٥] فى مائتى فارس رِدْءاً للجيش كلِّه ، مخافَة أن يتعقَّبَه المسلمون .

---

(١) فى سيرة ابن هشام أنه (عمرو بن عبد ود بن قيس أخو بنى عامر بن لؤى) .

(٢) حبطت : أخفقت .

(٣) الموكل : الذى يتولى أمره .

(٤) هوى من الليل : هزيع أو قسم من الليل .

(٥) ساقة الجيش : مؤخره .

وتصدّى خالدٌ مرةً أخرى للنبي عليه الصلاة والسلام فى سنة الحُدَيْبية وهو فى طريقه إلى مكة . وكان النبيُّ قد خرج إليها مُعْتَمِرًا [١] فى نَحو ألف وخمسمائة من المسلمين لا يحملون سلاحاً غيرَ السيوفِ فى القُرُب [٢] ، فأوجس المشركون خِيفةً أن يكون قدومُه إلى البيت الحرام للقتال لا للعُمرة . وندَبوا خالداً فى مائتى فارس للقائه قبلَ بلوغ مكة . فدنا خالد حتى نظر إلى أصحابِ رسول الله ، وأمر رسولُ الله عبادَ بن بشر فتقدم فى خيله وأقام بإزائه وصفَّ من ورائهم رجاله ، ثم حانت صلاة الظهر فصلى رسول الله بأصحابه صلاةَ الخوف ، وهمَّ خالد أن يغيرَ عليه لولا نخوةٌ من الفروسية أبت له العدوانَ على المُسالم وقَمَعَتْ فيه طمَع الرئيس المَغيظِ على مكانته وعُروضِ دنياه [٣] فعَلتْ هنا كفةُ الفارسِ النبيل على كفة الرئيس المؤتور ؛ وقال خالد يصف ذلك بعد إسلامه : « هَمَمْنا أن نُغير عليه ثم لم يُعزَمْ لنا ، وكان فيه خِيرة . فأُطْلع على ما فى أنفسِنا من الهجوم به فصلى بأصحابه العصرَ صلاة الخوف . فوقع ذلك منى موقعاً ، وقلتُ : الرجلُ ممنوع »

---

(١) معتمراً : يريد العمرة ، وهى زيارة تسمى الحج الأصغر .
(٢) القرب ، جمع قراب (بكسر القاف) وهو غمد السيف .
(٣) عروض دنياه : جمع (عرض) بفتحتين ، وعرض الدنيا ما كان من مال قل أو كثر .

إلا أنه مع هذا بقى على لَدَدِه[١] فى خصومة الإسلام ومُعاند نفسِه دونَ الإصغاءِ له والنظرِ إليه . فلما صالح النبىُّ قريشاً ودخل مكة فى عمرة القَضَاء[٢] كره خالد أن يشهدَ دخولَه ، وتغيب من جوار البيت ريثما يعتمرُ المسلمون ويرجعون من حيث أتَوْا ، وهو مُعْفَى النظر من رؤية شىء لا يستحبُّه ولا يُخَلَّى بينه وبين حربهِ .

كذلك كانت كراهة خالد للإسلام بعد كراهةِ أبيه .

ومن وَثَباته هذه ، ولجاجه ذاك ، يغلبُ على الظن أن كراهتَه كانت من نوع تلك الكراهةِ التى هى أقرب إلى المبارزةِ والمناجزةِ منها إلى المَقْتِ وانضغِينةِ . لأنها لا تعنّى صاحبَها بالبعد من موضوعها كما تعنيه بالاشتغال به والعكوف عليه ، كأنه زميل المبارزة اللازمُ لإتمام الصراع وإذكاء حرارته وامتِحان قدرةِ النفس عليه .

وهذه الحرارةُ حركةٌ جيَّاشة فى النفس ، وليست كذلك المَوَاتِ الذى تنقبضُ عليه النفسُ فى الشيخوخةِ الفانية ، ولا كذلك الضِّغْن الذى يتغذَّى بقَيْحِهِ المخزون فى طبيعة منغولةٍ[٣] معدومةِ الخير والنجدة . .

---

(١) اللدد : شدة الخصومة .

(٢) سميت كذلك لأنها كانت بدلا من العمرة التى صدته قريش عنها من قبل .

(٣) طبيعة منغولة : مشحونة بالحقد والضغينة ، والنغل : الفساد .

مثلُ هذه الحركة الجياشة فى النفس الحية الفتية كالسيل المتدفِّع الأَتىِّ[1] فى واديه المحيطِ بجانبيه ، يظل متدفعاً أَتِيًّا ما بقى فى الوادى ، وما انهمر عليه الغيثُ من ضِفَّتيه . ولكنه إلى أمدٍ لا محالة ، لأَنه سينتهى إلى مفترق الوادى فلا يجيش ولا يتدفَّع ، وسيقصُرُ عنه الغيثُ فلا يربو ولا يترَع[2] وسيكون طريقه مع الوادى المفترِق غيرَ طريقه مع الوادى المحصور .

والوادى هنا قد افترق فى مجراه شعبة بعد شعبةٍ منذ عهدٍ غير قريب وإن لم ينتهِ بعدُ إلى غايةِ المفترَق فى الأَرض البَراح[3] .

افترق الوادى قليلا حين انقسم بيتُ المغيرة بين معسكرِ الجاهلية ومعسكر الإسلام ، وأصبح فى معسكر الإسلام أَخَوان حبيبانِ إلى خالد . وهما الوليدُ وهشام .

وافترق قليلا يوم أَصغى أبوه إلى القرآنِ فحدَّثَ آلَ بيته عنه ذلك الحديثَ الذى أرابهم وأَشجاهم[4] ، فحسبوه قد صَبَأَ عن دينه وسأَلوه عن نبإِ محمد ، فأَوشك أن يقَع فى قلبِه أنه وحىُ السماء

---

(١) السيل الأتى : الذى يأتى من مكان بعيد لا يدرك .

(٢) يربو : يزيد ويفيض ، ويترع : يمتلىء .

(٣) البراح : المكان المكشوف لا يستره شجر أو غيره .

(٤) أرابهم : بعث الشك والريبة فيهم ، وأشجاهم : غمهم وأحزنهم .

لو لم ينطقْ لسانُه بأنه السحرُ الذى يفرِّق بين الرجلِ وزوجِه والوالد وبنيه ، والسيدِ ومولاه ! . .

وافترق قليلا يوم شَهِدَ خالدٌ سكينةَ المسلمين فى طريق الحديبية وهم قائمون للصلاة ، وهَجَسَ فى خاطِره أن يُغير عليهم فصدَّتْه عنهم رهبةُ الصلاةِ ونَخْوة الفارس المُحْجِم عن الغدر والغِيلة[1] ، وسَرَى فى رُوعه[2] أن لمحمدٍ لسِرًّا وأن الرَّجلَ لممنوعٌ .

وكان لتلك الحركة الجياشة مددٌ من تحريك الكتائب وتجريد الطلائعِ وإقامة الأَرصادِ[3] والتقاءِ الجموع واتفاقِ الكلمة بين المشركين على الحرب والعِداء ، فإذا هم يتبلبلون مختلفين بعد صلح الحديبية ، وإذا بصلح الحديبية يُلقى السلاحَ من الأَيدى سنينَ طوالا لا لِقاءَ فيها ولا نِزال ، ولا سَوْرةٌ من غضب ، ولا جَذوةٌ من غيظ مُثار[4] .

ومات الشيوخ الذين كانوا يُخيِّمون بوقارهم وجمودِهم على العقول ، وتهيأَ الجوُّ للسؤال : فيم هذا العِداءُ والنضال ؟ أمن أجل الكعبة ومحمدٌ يرعاها ويحترمُ جِوارَها ويَحجُّ إليها ؟ أم من أجل

---

(١) الغيلة : الاغتيال . و (قتلة غيلة) أى خدعه ثم قتله غدراً .
(٢) الروع : (بضم الراء) القلب والعقل .
(٣) الأرصاد : الرقباء والحراس .
(٤) سورة الغضب : وثوبه وهياجه ، والجذوة : جمرة النار .

العصبيةِ القوميةِ وشرفُ محمدٍ شرفُ العربِ أجمعين ؟ . . أم من أجل الكرامةِ ومحمدٌ يصون للعزيز كرامتَه ويعرف للحسيب قَدْرَه؟ ..

ومن أين لمحمد ذلك النصرُ المبين بعد النصر المبين ؟

ومن أين له تلك المهابةُ التى تردُّ عنه الأَعين والأَيدىَ من قريب ؟

ومن أين له ذلك العونُ الذى يُدركه وقد أحاطت به الهزيمةُ من كل فَجٍّ فإذا هو ناصلٌ[1] منها ؛ وإذا هو الطاردُ الظافرُ وقد خُيِّلَ إليهم أنه الطريدُ المخذول ؟ . .

ومن أين للمسلمين ذلك الأَدبُ وذلك الخشوع ؟ ومن أين للنبى بينهم ذلك السلطانُ الصادعُ[2] والصوتُ المسموع ؟

لقد رآهم ورآه سيدُ أهلِ الطائفِ عروةُ بنُ مسعودٍ فعاد إلى قومه يقول : « والله يا معشرَ قريش ! . . جئتُ كسرى فى مُلكه ، وقيصرَ فى عظمتهِ ، فما رأيتُ ملِكاً فى قومه مثلَ محمد بين أصحابه ، ولقد رأيت قوماً لا يُسْلِمونه[3] بشىء أبدًا ، فانظروا رأيَكم ، فإنه عَرض عليكم رُشْداً ، فاقبلوا ما عَرض عليكم فإنى ناصح ، مع أنى أخافُ ألا تُنْصَروا عليه » .

---

(١) ناصل منها : خارج منها .

(٢) السلطان الصادع : القوى القاطع .

(٣) لا يسلمونه : لا يفرطون فيه .

ولقد رأوه بعد ذلك فى عمرة القضاء لا يتوضَّأ وَضوءاً[1] إلا كاد المسلمونَ يقتتِلون عليه ، وإذا تكلموا خَفَضوا أصواتَهم عنده ، ولا يُحِدُّون[2] النظرَ إليه ، ورأوهم فى نظامهم ومودتهم وصدق إيمانهم وخالص نياتهم ، فأكبروهم وعَزَّ عليهم أن يصغِّروهم أو يتمادَوْا فى الزِرَايةِ بهم[3] والإعراض عنهم ، وانقلبوا إلى أنفسِهم فإذا هم مرتابون فى الغدِ متدابرون فى المقصِد[4] ، منهزمون وهم الأكثرون ، مُحجِمون وهم المتربِّصون . فحانت الساعة لوزنِ الأمور ومُراجعة الحاضِر والمصير ، وفُرضت هذه المراجعةُ فرضاً على كل ذى بَصَرٍ بالقيادة فى معارك النضال أين تفشَل وأين يتسع لها المجال ، فإذا بالرجلين المفطورين على توجيهِ الوجوهِ قد انتهيا إلى رأى فى مصير المعركة بين الجاهلية والإسلام فى ساعة واحدة ، وعلِما أين يقفُ الدينان المتناجزان[5] من حق النصر وعوارض الهزيمة ، وهما عبقريًّا قريش فى أُصول القيادةِ على تبايُنِ السنِّ والمذهب والمِزاج : خالدُ بن الوليد وعمرُو بن العاص .

(١) الوضوء : (بفتح الواو) الماء الذى يتوضأ به .
(٢) يحدون النظر إليه : ينظرون إليه بحدة .
(٣) الزراية بهم : امتهانهم وعيبهم .
(٤) متدابرون فى المقصد : متقاطعون مختلفون .
(٥) المتناجزان : المتصارعان .

وفى تلك الآونةِ التى يشتد فيها الجذبُ والدفع بين الإنسان وقرارة ضميره وتجبُ فيها الموازنةُ وجوباً على كل ضليع بها قادرٍ عليها ، لم يُترَكْ خالدٌ لنفسِه ، ولم يلبث أن جاءته الدعوةُ التى تنصره على عناده ، وتخرجه من تردده ، وتستدعى منه البتَّ العاجلَ بجوابه ، وتمسح الغضاضةَ التى لعلَّها كانت تَثْنيه عن تلبيةِ ضميره .

وتلك رسالة من أخيه يحملها له من كلام محمد ، ولا غنى فيها عن جواب . .

قال أخوه الوليد : « . . أما بعدُ . . فإنى لم أرَ أعجبَ من ذهاب رأيِك عن الإسلام ، وعقلُك عقلُك[1] . ومثلُ الإسلام يجهلُه أحد ؟ ! »

ثم مضى يقول : « سألنى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فقال : أين خالد ؟ فقلت : يأتى اللهُ به . فقال : ما مِثلُ خالدٍ يجهلُ الإسلام ، ولو كان جعل نكايتَه[2] وحدَه مع المسلمين على المشركين لكان خيراً له ، ولقدَّمناه على غيره ..

---

(١) وعقلك عقلك : أى ولك ذلك العقل الذى نعرفه فيك .

(٢) نكايته : (نكى فى العدو) أى قتل فيهم وجرح .

فاستدركْ يا أخى ما فاتك منه ، فقد فاتتْك مواطن صالحة »

* * *

تلك كانت هى الدعوةُ التى جاءت فى أوانها

وكان إسلامُ خالد هو الجوابَ .

فهى مراحلُه الطبيعية التى لا بد له من عُبورها بين الجاهلية والإسلام : لم يكن طبيعيًّا أن يلبِّىَ أولَ دعوةٍ وهو هو فى قريش صاحبُ معقِلها المنيع . .

ولم يكن طبيعيًّا أن يلبى الدعوة فى وطيس الحرب ومحتدم العِداء

ولم يكن طبيعيًّا أن يسكنَ هنيهةً إلى الموازنة وقد انقسم بيتُه ثم انقسمت نفسُه ثم جاءتْه الدعوة الكريمة فى حينها فلا يكونُ الإسلامُ جوابَه المنظور . .

فهو قد انتقل من الإصرار ، إلى القتال ، إلى المُوادعة ، إلى الموازنة ، إلى الترجيح ، إلى الإجابة ، ولو عجَّل بواحدةٍ من هذه الخُطُوات لكانت هذه العَجَلةُ هى مكانَ العجب ، وهى الأمرَ المخالِفَ لطبائع الأمور .

وقد أسلفنا أن الإسلام كان فى أمر خالد ضرباً من التسليم ، فنُعيد هنا أنه تسليمُ القائِد فى معركة نفسية ، وليس بتسليم القائد

فى معركة حِسيَّة وكفى ، ولهذا عناه[١] أن يستغفر له النبيُّ ربَّه عن ماضيه ، ولم يَكن قُصاراه أن يرحِّبَ به النبى ويُسلِكَه بين صحابته ومُريديه . فقال : يا رسولَ الله . . قد رأيتَ ما كنتُ أشهدُ من تلك المواطن عليك مُعانداً عن الحق ، فادعُ اللهَ يغفرها لى فأجابه النبى عليه الصلاة والسلام : إن الإسلام يَجُبُّ ما كانَ قبله[٢].

فعاد خالد يؤكد رجاءه ويقول : يا رسول الله وعلىَّ ذلك ! فدعا النبيُّ ربه : اللهم اغفر لخالدِ بن الوليد كلَّ ما أوضعَ[٣] فيه من صَدٍّ عن سبيلك ! . .

فرضى خالد واستراح . .

ولا يكون هذا إلا تسليمَ القلب نَفَض عنه الكفرَ ، وليس تسليمَ اليد رَمَت منها السلاح . .

* * *

وأحرى بنا أن نرجعَ إلى كلام خالد لبيان تاريخ إسلامه وسبب اهتدائه وتلخيص الأحاديث التى كاشف بها خلصاءه قبل لَحاقِه

---

(١) عناه أن يستغفر له النبى : كان يعنيه ويهمه أن يستغفر له النبى .

(٢) يجب ما قبله : يقطعه ، فلا يكون له أثر .

(٣) أوضع : أوضع فلان فى الشر : أسرع فيه .

بالنبي فى المدينة ليُسْلِمَ على يديه ، فإنه أَجمل ذلك كلَّه إجمالا يُفصح عن تلك الأَطوار النفسية التى ساورتْه وإن لم يقصد إلى الإفصاح عنها ، ولعل صدورَها منه على البديهة أَبينُ لها وأَقربُ إلى توكيدها من الشرح المقصود . .

قال : « لما أَراد الله بى من الخير ما أَراد ، قذفَ فى قلبي حُبَّ الإسلام ، وحضرنى رُشْدى وقلتُ : قد شهِدتُ هذه المواطنَ كلَّها على محمد ، فليس موطنٌ أشهدُه إلا وأَنصرف وإنى أَرى فى نفسى أنى مُوضعٌ فى غير شيء ، وأَن محمدًا سيظهر[1] . فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحديبية خرجتُ فى خيل المشركين فلقيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أَصحابه بعُسْفَانَ[2] ، فقمتُ بإزائه وتعرَّضتُ له . فصلى بأَصحابه الظهرَ إماماً ، فهممنا أَن نُغيرَ عليه ثم لم يُعزَمْ لنا . وكان فيه خِيرة . فأُطْلِعَ على ما فى أَنفسنا من الهجوم به ، فصلى بأَصحابه العصرَ صلاةَ الخوف ، فوقع ذلك منى موقعاً وقلت : الرجلُ ممنوع ! وافترقنا ، وعدل على سَنَن خيلنا [3] ، فأَخذ ذاتَ اليمين ، فلما صالح قريشاً بالحديبية

---

(١) سيظهر : سينتصر .

(٢) عسفان : موضع بين مكة والمدينة على بعد مرحلتين من مكة .

(٣) سنن الخيل : طريقها .

ودافعته قريش بالراح[1] قلتُ فى نفسى : أىُّ شىء بقِى ؟ أين المذهب ؟ أإلى النجاشى ؟ فقد اتَّبع محمدًا وأصحابُه آمنون عنده . أفأخرج إلى هرقل ؟ فأخرج من دينى إلى نصرانية أو يهودية. أفأُقيم فى عَجَم أو أُقيم فى دارى فيمن بقى ؟ . .

« وبينما أنا كذلك إذْ دخل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى عُمرة القضاء ، وتغيبتُ فلم أشهد دخولَه ، وكان أخى الوليدُ قد دخل مع النبى صلى الله عليه وسلم فى تلك العمرة ، فطلبنى فلم يجدْنى . فكتب إلىَّ كتاباً فإذا فيه : " بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ، فإنى لم أرَ أعجبَ من ذهابِ رأيِك عن الإسلام وعقلُك عقلُك ، ومِثلُ الإسلام يجهله أحد ؟ وقد سألنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أين خالد ؟ فقلت يأْتى اللهُ به . فقال . ما مِثلُ خالد يجهلُ الإسلام ؟ ولو كان جعل نكايَته وحدَه مع المسلمين على المشركين لكان خيرًا له . ولقدّمناه على غيره ، فاستدركْ يا أخى ما فاتك منه . فقد فاتتك مواطنُ صالحة " .

« فلما جاءنى كتابُه نشِطْتُ للخروج ، وزادنى رغبةً فى الإسلام ، وسرَّتنى مقالةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورأيتُ فى النوم كأنى

---

(١) الراح : جمع راحة وهى الكف .

فى بلاد ضيقة جَدْبَة . فخرجت إلى بلدٍ أخضَر واسع . فقلت : إن هذه الرؤيا حق ! فلما قدِمْتُ المدينة قلتُ لأذكرنَّها لأبى بكر ، فذكرتُها فقال : هو مخرجك الذى هداك للإسلام ، والضِّيق الذى كنت فيه الشِّرْكُ ، فلما أجمعْتُ[1] الخروجَ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت : من أُصاحبُ إلى محمد ؟ فلقيتُ صفوانَ بنَ أُمية فقلت : أما ترى يا أبا وهب ؟ أما ترى ما نحن فيه ؟ إنما نحن أكَلَةُ رأس[2] ، وقد ظهر محمد على العرب والعجم . فلو قدِمْنا عليه فاتَّبعناه ؟ فإن شرفَ محمدٍ شرفٌ لنا . فأبى علىَّ أشد الإباء ، وقال : لو لم يبق غيرى من قريش ما تبعتُه أبدًا . فافترقنا ، وقلت : هذا رجلٌ موتور يطلب وترًا[3] ، قُتِل أبوه وأخوه ببدر . ولقيت عِكْرِمةَ بن أبى جهل فقلتُ له مثلَ ما قلت لصفوان . فقال لى مثلَ ما قال صفوان . فقُلت له : فاطْوِ[4] ما ذكرتُ لك . . وخرجت إلى منزلى فأمرت براحلتى تُخْرَجُ إلىَّ إلى أن ألقى عثمانَ بن أبى طلحة ، وهو صديقٌ لى أذكرُ له ما أُريد . ثم تذكرت من قُتِل من آبائه فكرهتُ أن أذكرَه ، ثم قلت : وما علىَّ وأنا

(١) أجمعت الخروج : عزمت عليه .
(٢) أكلة رأس : كناية عن قلة العدد .
(٣) الوتر : (بكسر الراء) الثأر ، والموتور : الحاقد الذى يطلب ثأراً .
(٤) أطو ما ذكرت : اخفه ولا تعلنه .

راحلٌ من ساعتى [١] ؟ فذكرت له ما صار الأمر إليه . وقلت : إنما نحن بمنزلة ثعلبٍ فى جُحْرٍ لو صُبَّ عليه ذَنوبٌ[٢] من ماء خرج ، وقلتُ له نحواً مما قلتُه لصاحبيه ، فأسرع الإجابة . . وأدلَجْنا بسُحرةٍ[٣] فلم يطلع الفجرُ حتى التقينا بيأْجَج – على ثمانية أميال من مكة – فغدونا حتى انتهينا إلى الهَدّة ، فوجدنا عمرو بنَ العاص بها فقال : مرحباً بالقوم . قلنا : وبك . فقال : أين سيركم ؟ قلنا : ما أخرجَك ؟ قال : فما الذى أخرجكم ؟ قلنا الدخولُ فى الإسلام واتباعُ محمد ، قال : وذاك الذى أقدَمنى ، فاصطحبنا جميعاً حتى قدمنا المدينة ، فأنخنا بظاهر الحَرّةِ[٤] ركائبَنا ، وأخبرَ بنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فسُر بنا . فلبست من صالح ثيابى، ثم عمَدت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلقِينى أخى فقال : أسرعْ فإن رسُول الله صلى الله عليه وسلمَ أُخبر بقدومك فسُرَّ بقدومك وهو ينتظركم ، فأسرعت المشى ، فطلعت فما زال يبتسم إلىّ حتى وقفتُ عليه ، فسلمتُ عليه بالنبوة ، فرد علىّ السلام بوجه طَلْقٍ فقلت : إنى أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسولُ الله . فقال : الحمد

---

(١) من ساعتى : الآن .
(٢) ذنوب : الدلو المملوءة بالماء .
(٣) السحرة : السحر ، وهو قبيل الصبح ، والإدلاج : السير فى الليل .
(٤) الحرة : أرض ذات حجارة سود كأنها أحرقت بالنار .

لله الذى هداك . وقد كنتُ أرى لك عقلاً ورجوتُ أن لا يُسْلِمك إلا لِخير » . .

إلى أن قال : «وتقدم عمرُو وعثمانُ فبايعا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان قدومنا فى شهر صفر من سنة ثمان ، فو الله ما كان رسولُ الله يوم أسلمتُ يعدِل بى أحدًا من أصحابه فيما حَزَبه[1] » .

فهذا السرد البسيط قد يحوم بنا حول الخَالِجَة[2] الأُولى التى حرَّكت قلبَ خالد إلى الإيمان بالدين الجديد ، وتحسب أنها قد خالجتْه يوم التقائه بالمسلمين فى طريقهم إلى مكةَ قبيلَ صلح الحديبية . . يوم ردَّته سكينةُ الصلاة عن جموع المسلمين وهم مسالمون قانتون إلى جوار البيت الحرام ، ويوم بدا له أن هذا البيتَ العتيق غيرُ خاسرٍ شيئاً بدعوة محمد وغَلبةِ أصحابه على البلد الأمين ، ويوم تراءى العنَت[3] من قريش أن يذودوا ابنَ عبد المطلب عن كعبة آبائه وأجداده ، ويفسَحوا طريقهَا للوافدين من حِمْيَر كما قال الحُلَيْس بن عَلقمةَ الكنانى سيدُ الأحابيش .

---

(١) فيما حزبه : أصابه من أمر .

(٢) الخالجة : الفكرة تخطر بالقلب .

(٣) العنت : التشدد وطلب المشقة .

فمنذ تلك الساعةِ تباعد ما بين خالد وبين الشِّرْك ، وتقارب ما بينه وبين الإسلام ، وطفق يتباعدُ من هناك ويتقارب من هنا حتى كانت مبايعتُه النبيَّ على ما تقدم قبل فتح مكة بشهور .

وفى تحقيق هذا التاريخ – تاريخ إسلامه – خلافٌ غيرُ قليل ، ولكن التاريخ الذى جاء فى سرده المنسوب إليه أرجحُ التواريخ جميعاً لأسباب كثيرة ، ليس بأهونها ولا أوهنِها السببُ النفسانى الذى يقترن بغيره . فإن الوقت المشارَ إليه آنفاً لهو أشبهُ الأوقاتِ أن يتفقَ فيه قائدُ الحرب وقائدُ السياسة على انتهاء الجولة بين قريش والإسلام . ولن نجد وقتاً هو أولى باتفاق القائدين على اختياره للتسليم من ذلك الوقت الذى تواردت فيه الخواطرُ بين خالد بن الوليد وعمرو بن العاص . . وبعده قُضِى الأمر ولم يبق لمكةَ إلا أن تفتحَ أبوابَها طائعةً لمن هجرتْه وهجَرها تلك السنوات الثمان . .

وقد علم النبي عليه الصلاة والسلام جَلِيَّة الأمر[1] منذ قدم إليه الرفاقُ الثلاثة ، فقال لصَحْبِه : رمتكم مكةُ بأفلاذِ أكبادها ، وحقَّ للمسلمين أن يحسبوا منذ تلك الساعة أن أولئك الرفاقَ

(١) جلية الأمر : حقيقته ، والجلية : الخبر اليقين .

الأفذاذَ قد جاءوهم بمقاليدِ الكعبة ومسالك البلد الأمين .

فالواقعُ أن مكة قد آذنَتْ[١] بالفتح منذ فارقها خالد وعمرو وعثمانُ بن طلحة ، فأصبحت «المدينةَ المفتوحة» التى نعرفها فى اصطلاح هذه الأيام ، وأصبحت قضيةُ مغلِقيها فى وجه الدين الجديد قضيةَ عبَث وحبوط .

ويخطىء الكاتبون الذين يزعمون أنها فُتِحت بعد شهور لأنها أخذت على غِرَّة وزحف عليها جيشُ المسلمين فى عشرة آلاف وأهلُها مُعْجَلون[٢] عن الأهبة والدفاع . .

فإن النبى عليه الصلاة والسلام إنما زحف عليها لأن قريشاً غدرتْ بعهدها ، وسَطَتْ على حلفائه من خُزاعة . ثم أشفقت من القصَاص[٣] فأوفدتْ أبا سفيانَ إلى النبى يستأْمنُه[٤] ويسأله مدَّ العهدِ الذى أُبرم بينهم فى صلح الحديبية ، فأبَى النبى ولم يجبْه ، وأحسَّ المشركون منذ اللحظة الأُولى أن المسلمين زاحفون عليهم لا مَحالة ، فلو أن قضيةَ الشِّرك بقيتْ لها بقيةٌ من عزم ستعدوا قبل السَّطْوِ بخُزاعَة أو بعده على الأثر وأراحوا أنفسَهم

(١) آذنت بالفتح : أعلمت : كأنما ظهرت بوادر الفتح واضحة .
(٢) معجلون : يعنى : مأخوذون على غرة فهم غافلون.
(٣) أشفقت من القصاص : خافت من الانتقام .
(٤) يستأمنه : يطلب الأمان .

من الوساطة فى التأجيل والمراوغة ، ولكنه التسليمَ الذى بدأ بإسلام خالد وصاحبيه قد تراخى به الوقتُ إلى أجلِه المعلوم .

* * *

فلما جاءها المسلمون دخلوها آمنين على كثرةِ مَنْ بها من المشركين ، وتقدم النبى صلوات الله عليه فى كتيبته الخضراء ، وتقدم سعدُ بن عبادةَ والزبيرُ بن العوام وخالد بن الوليد إلى أبوابها فدخلوها كلٌّ من الباب الذى وُكِل إليه ، ونهى النبىُّ أصحابَه عن القتالِ فيها ، فلم يحدث قطّ قتال إلا من صَوْبِ[1] خالد بن الوليد ، لأن صفوانَ بنَ أميةَ وسُهَيْلَ بنَ عمر وعكرمةَ بن أبى جهل رَصدوا[2] للباب الذى وصل منه وجمعوا له جمعَهم فمنعوه ورَمَوْه بالنَّبل ، وشهَروا عليه السلاح ، فبطش بهم وقتل منهم قُرابةَ ثلاثين أكثرهُم من قريش وأقلُّهم من هُذَيل ، وولَّى السادةُ والأتباع بعد ذلك فى هزيمة نكراء .

أهو تدبيرٌ أم مصادفة أحْكم من التدبير ؟

خالد دون غيره تصادفه جنودُ رفقائه بالأمس فى جيوش المشركين فيرمُونه ويرميهم وقد كانوا معاً يرمون المسلمين عن قوسٍ واحدة !

---

(١) صوب : ناحية .
(٢) رصدوا : راقبوا .

إنه حارب فى صفوف الإسلام عربَ الجزيرة وعرب العراق والشام ، وحارب فى صفوف الإسلام جيوشَ الفرس والروم ، وحارب فى صفوف الإسلام كلٌّ من برز لتلك الصفوف ، فما بالُ الجاهلية القرشية وحدَها ينصرُها على المسلمين ولا ينصر المسلمين عليها ؟ وأين يلتقى بِها إن فاته لقاؤها فى ذلك اليوم؟ لقد لقيها إذن فى ساعتها التى لا ساعة بعدها ، وقال النبىُّ حين سمع بضربته : أَلَمْ أَنْهَ عن القتال ؟ قالوا : إنه خالد قوتل فقاتل ! فقال : « قضاءُ الله خير . . » ثم قال : « لا تُغْزَى[1] قريش بعد هذا اليوم إلى يوم القيامة . . . »

وغرائبُ الاتفاق هكذا تكون حيث تكون .

---

(١) لا تغزى : لا : نافية ، ولذلك فالفعل بعدها مرفوع ، أى : لن يقع عليها غزو .